بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كلمة شهرية بعنوان:

سراج الطريق

بقلم

محمد بن سعيد الأندلسي

عفا اللّه عنه

لشهر ربيع الأول من عام ١٤٤٣ هـ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين أما بعد فقد رَوَى أَبُو نُعَيْمٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْقَاسِمِ قَالَ: سَمِعْتُ إِسْحَاقَ بْنَ رَاهَوَيْهِ وَذَكَرَ فِي حَدِيثٍ رَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ لِيَجْمَعَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ عَلَى ضَلَالَةٍ، فَإِذَا رَأَيْتُمُ الاِخْتِلَافَ فَعَلَيْكُمْ بِالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ»، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا أَبَا يَعْقُوبَ، مَنِ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ؟ فَقَالَ: مُحَمَّدُ بن أسلم وأصحابه ومن تبعه، ثُمَّ قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ ابْنَ الْمُبَارَكِ: مَنِ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ؟ قَالَ: أَبُو حَمْزَةَ السُّكَّرِيُّ. ثُمَّ قَالَ إِسْحَاقُ: فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ ـ يَعْنِي أَبَا حَمْزَةَ ـ وَفِي زَمَانِنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَسْلَمَ، وَمَنْ تَبِعَهُ ثُمَّ **قَالَ إِسْحَاقُ: لَوْ سَأَلْتَ الْجُهَّالَ عَنِ السَّوَادِ الْأَعْظَمِ لَقَالُوا: جَمَاعَةُ النَّاسِ، وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ الْجَمَاعَةَ عَالِمٌ مُتَمَسِّكٌ بِأَثَرِ النَّبِيِّ ﷺ وَطَرِيقِهِ، فَمَنْ كَانَ مَعَهُ وَتَبِعَهُ فَهُوَ الْجَمَاعَةُ،** ثُمَّ قَالَ إِسْحَاقُ: لَمْ أَسْمَعْ عَالِمًا مُنْذُ خَمْسِينَ سَنَةً كَانَ أشد تمسكاً بأثر النَّبِيِّ ﷺ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَسْلَمَ"[1].

"وَقَالَ نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ: «إِذَا فَسَدَتْ الْجَمَاعَةُ فَعَلَيْك بِمَا كَانَتْ عَلَيْهِ الْجَمَاعَةُ قَبْلَ أَنْ تَفْسُدَ، وَإِنْ كُنْت وَحْدَك، فَإِنَّك أَنْتَ الْجَمَاعَةُ حِينَئِذٍ»، ذَكَرَهَا الْبَيْهَقِيُّ وَغَيْرُهُ وَقَالَ بَعْضُ أَئِمَّةِ الْحَدِيثِ وَقَدْ ذُكِرَ لَهُ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ، فَقَالَ: أَتَدْرِي مَا السَّوَادُ الْأَعْظَمُ؟ هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ أَسْلَمَ الطُّوسِيُّ وَأَصْحَابُهُ، فَمُسِخَ الْمُخْتَلِفُونَ الَّذِينَ جُعِلُوا السَّوَادَ الْأَعْظَمَ وَالْحُجَّةَ وَالْجَمَاعَةُ هُمْ الْجُمْهُورُ وَجَعَلُوهُمْ عِيَارًا عَلَى السُّنَّةِ، وَجَعَلُوا السُّنَّةَ بِدْعَةً، وَالْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا **لِقِلَّةِ أَهْلِهِ وَتَفَرُّدِهِمْ فِي الْأَعْصَارِ وَالْأَمْصَارِ**، وَقَالُوا: مَنْ شَذَّ شَذَّ اللَّهُ بِهِ فِي النَّارِ، وَمَا عَرَفَ الْمُخْتَلِفُونَ

[1] روى الأثر مختصراً الذهبي في السير (١٢ ١٩٦ . ١٩٧) وفيها هذه الجملة. والأثر مخرج في الحلية (٩ ٢٣٨ . ٢٣٩).

أَنَّ الشَّاذَّ مَا خَالَفَ الْحَقَّ وَإِنْ كَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ عَلَيْهِ إلَّا وَاحِدًا مِنْهُمْ فَهُمْ الشَّاذُّونَ.

وَقَدْ شَذَّ النَّاسُ كُلُّهُمْ زَمَنَ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ إلَّا نَفَرًا يَسِيرًا؛ فَكَانُوا هُمْ الْجَمَاعَةُ، **وَكَانَتْ الْقُضَاةُ حِينَئِذٍ وَالْمُفْتُونَ وَالْخَلِيفَةُ وَأَتْبَاعُهُ كُلُّهُمْ هُمْ الشَّاذُّونَ، وَكَانَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَحْدَهُ هُوَ الْجَمَاعَةُ**، وَلَمَّا لَمْ يَتَحَمَّلْ هَذَا عُقُولُ النَّاسِ قَالُوا لِلْخَلِيفَةِ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَتَكُونُ أَنْتَ وَقُضَاتُك وَوُلَاتُك وَالْفُقَهَاءُ وَالْمُفْتُونَ كُلُّهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ وَأَحْمَدُ وَحْدَهُ هُوَ عَلَى الْحَقِّ؟ فَلَمْ يَتَّسِعْ عِلْمُهُ لِذَلِكَ؛ فَأَخَذَهُ بِالسِّيَاطِ وَالْعُقُوبَةِ بَعْدَ الْحَبْسِ الطَّوِيلِ؛ فَلَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، مَا أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةِ، وَهِيَ السَّبِيلُ الْمَهْيَعُ لِأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ حَتَّى يَلْقَوْا رَبَّهُمْ"[٢].

وقال أبو شامة:" حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة فالمراد لزوم الحق وأتباعه، وإن كان المتمسك به قليلا، والمخالف له كثيرا، لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي ﷺ وأصحابه، ولا ينظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم"[٣]، فالبصير الصادق لا يستوحش من قلة الرفيق إذا كان متبعاً في مسيره الرعيل الأول الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والصالحين والشهداء وحسن أولئك رفيقا وأنعم بهم إلى الحق دليلا".

وقلت قديماً في قصيرة كتبتها من وراء القضبان بعنوان سراج الطريق:

---

[٢] إعلام الموقعين ٣/٣٠٨

[٣] الباعث في إنكار البدع والحوادث ١/٢٢

صاحَ الغَريبُ في تِلك الدِيار … بصوتٍ حَزينٍ كَسيلِ الغَدير
يَا قَومنَا مَالكُم فِي سُبات … غَشاكُم ظَلامُ الدُجى في الهَجير
يَا قومَنا إنكُم في ضَلال … فِي بُؤرَةِ الكُفر بِئسَ العَشير
يَا قَومَنَا إِنِي مِنكُم بِراء … مِن دِينكُم شَرُهُ مُستَطِير
يَا أُمةً بَدَلت دِينَهَا … أَضحتْ تُسامُ بِبَخسٍ يَسير
يَا أُمةً ذُلِلَت مِن عُقود … طَوعاً تُساقُ كَسوقِ الحَمير
يَا قَصعةً بَين قَومٍ جِياع … هَل تَدفَعُ عَنها أَيدِي الأَمير
لا تَملكُ أَمرَها أو خِيَّار … لا مِنعةً عِندَها أو نَصير
استدَارَ الزَمانُ فَصَارَ إلى … شِركٍ عَميمٍ وشَابَ الصَّغِير
على نحلةِ الكُفرِ دَهراً يُقيم … عَلى مِلةِ الشركِ قَصراً يَصير
فيَا حُرقةَ القَلبِ عَن دِيننا … صَارَ حَبيسَ الكِتَابِ المُنير
كُلُ الدَعاوَى لهَا مَن يَصُول … ثَبَاتاً عليها فِي كَربٍ عَسير
فِداءً لَما يَعتقدْ ويَدين … وَفَاءً لرمز كَصبرِ البَعير
فَيا حَسرتاه على الحِقِ في … زَمانٍ خَلا مِن جُموعٍ تُغير
فَأينَ الأُباةُ الغَيارَى ومن … بِنُورِ الهُدى قَلبُه يَستنير
فَهل قَد رَضيتَ رُكوناً إلى … دُنيَا الخَنَا والمَتاعِ الحَقير
أو قد تَركت ثُغور الرجَال … أَرضَ الوَغى أو لَبستَ الحَرير
فَمن لا يَعيشُ الصِّراعَ يَذوب … فِي هَيجت البَحرِ زَبداً يَصير
أَخي إما أن تَلحقَ الرَكبَ أو … ضَياعاً بِحرِ اللَظى تَستجير
أَخا النَّهجِ قُمْ إِنَنَا فِي هَوان … عَلانَا الصَّغَارُ وسَوطُ الوَزير
أخَا النَّهجِ أَنتَ شُعاعُ الأَمَل … تُعيدُ النِزالَ كَغيثٍ غَزير
أخَا النَّهجِ إِنَّ الحِيَّاضَ استُبيح … فَلا صَولةً عِندنَا أَو قَفير
أَخي إِنَنا اليَومَ مِثلُ العَبيد … فَلا شَوكةً عِندنَا أو زَئير
أَخِي قُمْ نُعيدُ بِنَاءَ الكَيَان … عَلى لِبنةِ الحَق صَرحاً يَصير
فَهل قَد تُراكَ تَركتَ السَبيل … وأَلقَيتَ عَن سَاعديكَ النَفير
فَمن لَلعَطاءِ يُجيبُ ومَن … يُلبِي دُعاءَ الغَريبِ الأَسير
فلَستَ الذِي يَنحَني لِلعِدَا … ويَرضَى الدُنَا مِن وَضيعٍ حَقير
فَمن أُشرِبَ العِزَّ يَوماً فَلا … يُطيقَ الهَوانَ وذُلاً مَرير
سِراجُ الطَريقِ يُنيرُ السَبيل … يَسوقُ الخُطى نَحو عِزٍ كَبير

استَنَارَ السَبيلُ وبَانَ العَطَب ... وَصارَ الفَتَى نَحوَ نُورٍ يَسير
حَثيثاً لنَيلِ الُمرادِ يَتُوق ... بِهَمٍّ وعَزمٍ بِعينِ القَرير
فإِنا وَضعنَا الخُطى فِي ثَبات ... فَلسنَا نَحيدُ أبدْ عَن مَسير
ولَسنَا إذا قَد حَملنَا الهُدى ... خُلوداً إلى الإنبطاحِ نَصير
ستكونُ جُموعٌ تُغيضُ العِدَا ... عَلى النَّهجِ صَفواً بِه تَستنير
تَسوقُ الخُطى نَحو ذَاكَ الطَريق ... سَبيلُ الصَحابةِ قَفوا تسير
طريقٌ فريدٌ عَزيزُ السُلوك ... يُنادِي الغَريبَ بِصوتٍ جَهير
هَلُموا إلى الحَقِ لا تَنثَنُوا ... فَضوءُ الصَباحِ أَراهُ يُنير
فَليس الوُقوفُ عَلى الدَربِ أو ... قُعودٌ عن البَذلِ فِيكَ جَدير
فَسيلُ العِدا قد يُزيح الغُثاء ... بِدفقٍ كَبيرٍ كَوهجِ السَعير
فَسرُ الثَباتِ طَلاقُ السُبات ... كِفاحٌ طويلٌ وخيلٌ تُغير
كَذاكَ الدُعاءُ إلى دِيننا ... بحلمٍ وصَبرٍ وعِلمٍ مُنير
يَا رَبنَا إنَنا فِي هَوان ... إليكَ نَؤوبُ بِكَ نَستجير
يَا ربَنا مَن يُجيب دُعاء ... عَبدٍ ضَعيفٍ فَأينَ المَصير
إلى اللهِ نَشكُو المُصابَ العَظيم ... قَهرَ العِدا وشَماتَ الحَقير
فِي هذهِ الأرض إمَّا حَياة ... تُغيظ العِدا أو دَماءً تَطير

